وصف العاصفة

عند امرىء القيس وعند فرجيل

لقد نعلم جميعاً اليوم بأنه لا بدّ لنا في درسنا الأدب العربي من المقارنة بين هذا الأدب وآداب أخرى إذا ما شئنا أن نتبين قيمته الإنسانية ومكانته في العالم. إلاّ أننا لسنا بغافلين من أن هذه المقارنة لا تجوز بين أدبنا وبين الآداب الغربية الحديثة، وإنما الرأي في الأمر أن تكون هذه المقارنة بينه وبين الآداب العالمية القديمة ولا سيما الأدبان اليوناني واللاتيني لسعة انتشارهما في العالم المتمدن. ولقد وفر لهما هذا الانتشار الواسع، الجانب القوي من الروعة والفن الذي انتهيا اليه في تعبيرهما عن العواطف الإنسانية وتصويرها حتى أن أمم الغرب جميعاً اتخذتهما كمثل أعلى تقيس اليه آثارها كل أثر كتابي أو شفهي خُصَّ الشهرة الأدبية والخلود.

ولقد نشعر في أثناء تطبيقنا هذه الفكرة عملياً واتخاذنا آثارنا الأدبية أثراً أثراً ومقارنتنا اياها مع بعض ما خلف لنا اليونان أو اللاتين من تراث أدبي. أن أدبنا العربي القديم هذا، الذي يظنه البعض بعيداً عنا، غريباً عن حياتنا، يلائم كل الملاءمة تلك الحياة التي نعيشها في عصرنا العشرين، إذ أن هذا الأدب في كثير من مقطوعاته، لم يقصر دون الآداب الغربية القديمة في تعبيره عن العواطف التي قد تشغل صدر كل إنسان في أثناء وجوده في مواقف ومشاهد ممتازة يعدها من ذرى حياته العاطفية الوجدانية رقيها.

وبين الآثار العربية القديمة التي نراها جديرة بمثل هذه المقارنة، مقطوعة لامرىء القيس يذكرها لنا الرواة في آخر معلقته وتتناقلها كتب الأدب بالعنوان «وصف البرق والمطر والغيث». ونحن نوردها هنا، معتمدين على نسخة «أهلوارد»[1] التي نراها أصح من

---

(1) Paris 1913 — W. Ahlwardt — "The Divans of the six ancient Arabic Poets" ص ١٥٠

غيرها من حيث البحث العلمي ، وهي في الوقت نفسه ، أشد ملاءمة من سواها لدارس العاصفة بمقتضى العوامل الطبيعية .

أصاحِ ترى برقاً أُريكَ وميضَهُ كلمعِ اليدينِ في حَبيٍّ مُكلَّلِ
يُضيءُ سناهُ ، أو مصابيحُ راهبٍ أمالَ السليطَ بالذُّبالِ المُفتَّلِ
قعدتُ لهُ وصُحبتي بينَ ضارجٍ وبينَ العُذيبِ ، بُعدَ ما مُتأمَّلي
علا قطَناً ، بالشَّيمِ ، أيمنُ صوبِهِ وأيسرُهُ على الستارِ فيذبلِ
فأضحى يسحُّ الماءَ حولَ كُتيفةٍ يكبُّ على الأذقانِ دوحَ الكنهبلِ
ومرَّ على القنانِ من نفيانِهِ فأنزلَ منه العُصمَ من كلِّ منزلِ
وتيماءَ لم يتركْ بها جذعَ نخلةٍ ولا أُطُماً إلاَّ مشيداً بجندلِ
كأنَّ ثبيراً في عرانينِ وبلِهِ كبيرُ أُناسٍ في بجادٍ مُزمَّلِ
كأنَّ ذُرى رأسِ المُجيمرِ غُدوةً من السيلِ والأغثاءِ فلكةُ مِغزلِ
وألقى بصحراءِ الغبيطِ بَعاعَهُ نزولَ اليماني ذي العيابِ المُحمَّلِ
كأنَّ مكاكيَّ الجواءِ غُدَيَّةً صُبِحنَ سُلافاً من رحيقٍ مُفلفَلِ
كأنَّ السباعَ فيه غرقى عشيَّةً بأرجائِهِ القُصوى أنابيشُ عُنصُلِ

هذا ونحن نرتضي هذه القطعة على النحو الذي نقلها به لنا الرواة — إلا أننا نلتمس من حسن الرأي والذوق الأدبي أن نوردها ونعلها كوصف « عاصفة في مرتفعات نجد »[1] اذ يخلع هذا العنوان من الوحدة التأليفية على أبياتنا ، تبدو هكذا هذه الأبيات محكمة التآلف بعضها مع بعض وتزداد بذلك رونقاً وفناً .

ثم قد يجد بعضهم في صعوبة الألفاظ وبعدها عن المألوف المأنوس ، وفي غرابة بعض التراكيب ، مانعاً دون تذوق هذه القطعة تذوقاً تاماً — إلا أن هناك وفرة كتب الأدب التي تشرح جميع أبياتنا هذه شرحاً مستوفياً — فتتيح لهم أن يتجاوزوا هذا المانع

(١) ولقد سبق الى هذه الفكرة المستشرق الانجليزي « شارلس لايل » (Charles Lyall) في كتابه Translations of Ancient Arabian Poetry — (لندن) ١٩٣٠ — ص ١٠٣ — ١٠٦ . وتبعه فيها مواطناه « نيكلسون » و « جيب » في كتابيهما في الأدب العربي .

الخارجي الشكلي الى عالم من الجمال لم يكن لهم عهد به من قبل ، إذ أنهم يدخلون في نفس الشاعر ويشاركونه عواطفه وشعوره ، ويغتبطون لصوره البكر ويستمتعون طرباً لهذه « الموسيقى الداخلية » التي يتدبر بها الفن العربي ، تطوّر انفعالات عاطفته إزاء انقلابات العاصفة ومراحلها .

فما رأيك من حيث التصوير بوصف وميض البرق في جوانب السحاب بحركة اليدين في سرعتها وخفتها أو بضوء لهيب السراج بعد ان يندلع إذ عدّل الراهب الفتيل ليتشرّب الزيت . وما قولك بتعنف صورة المكاكي وسكرها وبما يكني الشاعر عن انقطاع المطر وفرح الطبيعة أثر ذلك . وأرشدك وانياً الى الروعة الفنية التي يولدها امرؤ القيس في نفس القارىء أو السامع حين أنه يجعل هذه الصورة اللطيفة الى جانب صورة قوية صاخبة تمثل ضخامة العوامل الطبيعية وبطشها في أثناء العاصفة . ولذلك نرى ان الشعر العاشر هو قمة مقطوعتنا من الناحية التصويرية — ... وهو الى ذلك قمتها من ناحية الموسيقى الداخلية . وما لك لكي توافقنا على ذلك إلا أن ترجع الى قراءة الأبيات من الشعر الثالث وتضخم الصوت شيئاً فشيئاً حتى تنتهي الى البيت العاشر الآنف الذكر فتعطي لحروف صدر هذا البيت من « قاف » « وصاد » « وضاد » « وطاء » « وعين » حقها من حيث القيمة الصوتية فتمثل بذلك لسمعك هدير دوي العاصفة المقبلة نحوك ، ثم انفجار السحابة وإلقاءها ثقلها من المطر . ثم قف بعد ذلك لحظة نكل بعدها الى ذوقك الفني ، وانتقل بعد ذلك الى البيت الحادي عشر : ألا تشعر بنفسك حينئذ خارجاً من موجة موسيقية أولى ، موجة العنف والشدة والانقباض ، ومدفوعاً بموجة موسيقية أخرى ، موجة الانشراح والانبساط تحملك من غير وعي منك وتدخلك في حركتها اللطيفة الرشيقة ، فيجعلك كل ذلك تدرك حسياً بنفسك المادي والروحي ، فرح الطبيعة بعد انقطاع المطر وزوال العاصفة ؟

وهناك مزايا أخرى لا نقف عندها ، بل نتركها لذوق القارىء إذ أن غايتنا هنا ليست درس مقطوعتنا بحد ذاتها وتحليلها تحليلاً أدبياً دقيقاً ، وإنما ألمحنا الى بعض مواطن الفن والجمال فيها محاولة منا أن نساعد القارىء على مقارنتها مع مقطوعة لاتينية في وصف العاصفة أيضاً . وقد أخذنا هذه المقطوعة عن « فرجيل » أحد شعراء اللاتين العظام .

وربما كان أعظمهم ، وهي منتزعة من مؤلفه المشهور « القرويات » Géorgiques يفتتح « فرجيل » الباب الأول من « قروياته » بالدعاء « لمسيناز » الذي أحسن إليه ، واتخذه في كنفه ، ثم يطلب من الآلهة ، ولا سيما الحقلية منها ، أن تعضده في عمله الأدبي ثم يبتدي بمحاكاة الحقل والقرى وأعمالها وأشغالها من حراثة وزرع ، ولا بد لكل ذلك من تعب وجهد وعناء — فيدفع ذكر هذا شاعرنا الى الحديث عن العصر الذهبي وسعادة الانسان إذ ذاك ، ثم ينتقل الى الكلام عن أدوات الفلاحة التي يستخدمها الفلاح ، ثم عن دلائل خصب التربة وعن خزن البذر وإعداده ، ثم عن الزمن الصالح للزراعة ، ثم عن تربية الدواجن ، وعما يجمل بالقروي أن ينصرف إليه من عمل في الصيف وفي الشتاء . وهكذا ينتهي به الأمر الى كيفية تدبير الوقت في الخريف والربيع أيام تناجي العاصفة الحواضر والقرى ، فيقول :

ما عسى أن أقول عن عواصف الخريف وأنوائه .
وعما ينبغي ، إذ يقصر النهار ويخف الحر ،
أن يكون المرء حريصاً عليه . أو[1] عندما يقبل الربيع المطير ،
وتكون الحقول قد استوى فيها زرعها على سوقه ،
وتكون الحبوب الحليبية في السنبلة الخضراء قد نمت .
كم من مرة في حين كان يدعو القروي الحصادين الى حقوله الصفر ،
ويكون قد بادر في حصاده الزرع القائم على سوقه القصم ،
التحمت المعارك ، على جميع أنواعها ، بين الأرياح ! هذا ما رأيت .
وكانت هذه الأرياح تستأصل الزرع المثقل ، من أعماق جذوره
وتدفع به بعيداً ، ثم بأنصار قائم ،
كانت تأتي العاصفة ، فتقل الورق والتبن المتطاير ، وتذهب به .
وكم من مرة ، في الشتاء ، تلبدت المياه شآبيب ،

(١) لقد بالغنا في الايجاز اخلاصاً لنص اللاتيني ، ومعنى الجملة كما يلي : أو (ماذا أقول عما ينبغي أن يكون المرء حريصاً عليه) عندما يقبل الربيع الماطر .

وحضن في جوفه ، العاصفة الهائلة تصحبها الأمطار الدكن ،
ما انتم في حلّ من الغيوم ، وما هي إلا والسحاب المتعالي ، يهبط على الأرض مدراراً
وسيل عظيم يغمر السنابل الضاحكة ، وعنى عمل البقر ،
ويجرها فتترع الخنادق ، وتغور الأنهار مرتفعة عن مجراها العميق
لجبه ، ويزبج في دفاقته المضطربة ، البحر
والآب [1] في وسط الغيوم السود ، بيده اليمنى الساطعة
يشرع الصاعقة ، ومن وقعها في أرجائها الواسعة ،
تهتز الأرض ، وتولي الوحوش هاربة ، وقلوب بني الانسان ،
في جميع الأقطار يعتريها خوف وضيع ،
أما هو [2] فلا يزال يرمي بسهمه الملتهب ، أو الاتوس ، أو الرودوب أو جبال
السيرونيا الشاهقة [3]
تتضاعف الرياح ، وتتكاثف الوابل
ومن الاعصار المنيف ، دالغابات تدوي تارةً ، وتارةً الشواطئ » .

* * *

ولعد أن يسدي الشاعر ما ترويه النصائح ، ويوصيه خيراً بالورع والتقوى والتباع
للآلهة ولا سيما مارس ربة الحصاد وسائر الأعمال الحقلية ، يواصل في الانشاد ، عما
ولابن انقطاع المطر وانتهاء العاصفة ، فيقول :
ولا تعود ، فتنشر للشمس النائرة ، أجنحتها ،

---

(١) أي « جوبيتار » رب الآلهة والبشر . واسمه عند اليونان « زفس » كما هو معلوم .
(٢) أي « جوبيتار » دائماً .
(٣) كل هذه الجبال في بلاد اليونان ، أو مقدونيا . فجبل « آتوس » Athos في مقدونيا ، وجبل رودوب (Rhodope) في « الترامس » تراقيا (Thrace) وجبال « السيرونيا » (Mts. Céraunia) في أقليم الابير (L'Epire) والمرجح عندنا أن الجبل المقصود المعروفة اليوم بجبال (Della Chimera) راجع هذه الشاعر اليوناني تيوكريت (Théocrite) المعروف أيضاً بقروياته ورعاياته (Bucoliques) الأسماء في مؤلفات الشاعر اليوناني ٧٢٤ في أي طبعة كانت.

طيور الألسيون العزيزة (١) لدى ثاتيس (٢)
وأما الغيوم، فتمعي شيئاً فشيئاً الى أسافل الأرض وتضطجع على الحقول.
وعلى رؤوس السطوح، حيث يتوقع غروب الشمس،
عبثاً يحاول طير البوم تحيته الليلي.
يظهر عالياً في الهواء الجلي، نيسوس، (٣)
وبالثمرة الحمراء، التي اجتزتها، تؤخذ سيلا.
وأينما ولت منه، تشق الأثير الخفيف بأجنحتها.
فنيسوس أبداً في أثرها، لدوداً، متحرشاً، يصفق بجناحيه في الهواء.
وكيفما اتجه نيسوس في الهواء،
فهي تخف في هربها، وتشق بأجنحتها الأثير.
حينئذٍ تضغط الغربان على حلاقيمها، وتكرر بصوت جلي،
وصله ثلاثاً أو أربعاً. وغالباً، في مواقعها العالية،
ولا أدري أي لذة غريبة تحدث فيها هذا الفرح،
هي تعبث فيما بينها تحت الأوراق. يلذ لها، بعد أن دفعت الأمطار،
أن تعود الى مشاهدة صغارها، وأعشاشها الحلوة.

---

(١) طير وهمي، ورد إسمه في الأساطير اليونانية، كان في زعمهم، لا يجعل عشه الا على سطح بحر هادىء، وكانوا الى ذلك يتفاءلون به

(٢) إلهة بحرية، وهي أم « اخيلوس » بطل الالياذة الشهير.

(٣) أصل هذه الصورة أسطورة يونانية فحواها ما يلي: « كان في رأس نيسوس (Nisus) ملك « ميغارة » (Megare) مدينة في اليونان، شعرة ارجوانية اللون، وكان مصير مملكته منوطاً بهذه الشعرة. فحدث أن مينوس (Minos) ، ملك اقريطش (Crète) حاصر مدينة (Megare) وكانت إسقولا (Scylla) بنت « نيسوس » تحب « مينوس »، فاجتزت الشعرة الارجوانية من رأس أبيها وقيضت هكذا النصر لحبيبها. ومن هذا الحين، حول نيسوس الى باشق وحولت إسقولا الى سماناة، وترى الوالد أبداً في اثر ابنته ليقتص منها وينتقم على سوء عملها.

أنا بعيد عن الزعم بأن قد أنعم عليها بشيء من روح الجن ، أو بأن قد منحت عليها
الاقدار بحكمة فوق طبيعتها ،
إلا أنه ، عندما تنتحي العاصفة وغيوم السماء المتنافلة
وتعدل الى سبيل آخر ، وعندما يمد جوبيتار الندى الى الأرواح
فيضم الى بعضه ما كان من الغيوم منبسطاً
وما كان منها ملتماً يبسطه ،
تتحول عند ذلك حالات الأرواح ، وأما القلوب ،
فهي تشعر باختلاجات غير التي كانت فيها أثناء كان الريح يدفع الغيوم ،
فمن ثمّ أهازيج الطيور في الحقول ،
والقطعان الفرحة والغربان المرحة في نعابها .

هذه ترجمة قطعة من الأدب اللاتيني يعرفها شباب الغرب ويراجعونها في مطاوي كتبهم بعد أن تروضوا بها وبغيرها من النصوص القديمة ، أثناء دروسهم الأدبية ، على الأسلوب الصحيح السليم في الانشاء وعلى الصور والمواطف السديدة المحكمة في الرأي والتفكير . جعلوناها متعة للنفس وروحاً للقلب . ونحن ننشرها اليوم في الشباب العربي اذكاء لعلم وخدمة للأدب . ولقد حاولنا ما وسعنا أن نجاري في الترجمة النص اللاتيني بكل أمانة وإخلاص ، حتى النقل بيتاً بيتاً . واجتهدنا أثناء عملنا هذا ، أن نتجرد عن ذوقنا العربي وعن أسلوبنا العربي وعن صورنا العربية ، لكي نبرز عاطفة « فرجيل » والصور التي اتخذتها قوالب لها ، أمام مشهد العاصفة ، على طابعها الخاص لا يشوبها عنصر قط غريب عنها . وذلك قصداً منا أن ندع القارىء يجعل نفسه أمام نص الشاعر اللاتيني معتمداً عليه وحده ، فيستنتج ما يسعه وما يحلو له أن يستنتج من المقارنة التي لا مناص له من أن يقيمها بين المقطوعتين . وأما نحن ، وإن كنا نعترف للقطعة اللاتينيـة بالتفوق في بعض النواحي ، فاننا لا نرى أدبنا العربي قاصراً دونها من حيث وصف الواقع وابتكار الصور والايحاء العاطفي والاندفاع الشعري

مدرسة الآباء العازاريين — دمشق
الأب فريد جبر العازاري